الأجيال فى تنظيم الأسرة

منذ أتصالاتى الأولى بالمسئولين عن تنظيم الأسرة فى باكستان أحسست بأن المشروع هناك أصبح فى مفترق طرق ؛ ومن بين الأسباب لا شك حالة الانتقال التى كانت تعيشها البلاد فى جميع المجالات .

فى ظل حكم « المارشال » أيوب خان ثم يحى خان كان تنظيم الأسرة على قمة المشاريع التى كانت تهتم بها الحكومة . كل الأموال اللازمة ، وكل الإمكانيات البشرية والمادية توضع تحت تصرف المشروع بدون عناء ، والعاملون فيها يشعرون أنهم فوق المستوى العادى لباقى موظفى الحكومة . كان هذا أمراً طبيعياً ينسجم مع الارتباط القوى بين السياسة الباكستانية والنفوذ الأمريكى . السياسة الخارجية تابعة من الأحلاف العسكرية التى ارتبطت بها باكستان منذ إنشائها ، والسياسة الداخلية تابعة من نظام الدكتاتورية العسكرية الذى قضى على كل مظاهر الديمقراطية ، وحال دون التنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعى ، ووقف جهوده لخدمة حفنة من الأغنياء فى باكستان الغربية . وقد تبنى النظام ، بإيحاء وبتشجيع الدوائر الأمريكية ، فكرة تنظيم الأسرة لمواجهة مشاكل الفقر المتفاقمة بين جماهير الشعب ، وعلى الأخص فى باكستان الشرقية (بنجلاديش الآن) للحد من النمو السكانى بديلا من التنمية ، ووسيلة لتخفيف التناقضات الاجتماعية .. ولذلك فإن باكستان كانت المثل الذى يجسد نظرة الاستعمار إلى المشكلة السكانية وطرق حلها . لقد صرفت مبالغ كبيرة وصلت إلى عشرات الملايين من الدولارات (٦٠ مليون دولار) على هذا المشروع على حين رفضت الدوائر المالية الأمريكية المساهمة فى مشاريع التنمية ، وعلى الأخص المنشئات الصناعية .

واعتمد المشروع بشكل أساسى على تجنيد جهود الآلاف من العاملين وأساساً « الدايات » ليقمن بإقناع النساء فى الريف أن تركيب

باكستان : فى البورى بزار . الأوانى النحاسية المرسومة . دقة و إتقان

اللولب : بهدف منع الحمل : أمر مفيد لهن . كما تركزت الجهود أيضاً على إقناع النساء والرجال بإجراء عمليات التعقيم . وأقيمت معسكرات تخصيصاً لهذا الغرض. وكانت تدفع مكافآت مالية سواء للدايات ، أو للسيدات اللاتى يوافقن على تركيب اللولب ، أو للرجال الذين تجرى لهم عمليات تعقيم . وتحول المشروع بالتدريج إلى عملية تجارية ضخمة تستغل حاجة الفئات الفقيرة إلى المال لتغريها على استخدام أساليب منع الحمل .

وبرغم كل الجهود أخفق المشروع فى تحقيق أهدافه . ذلك أن الاستعداد للتحكم فى الإنجاب وعلى الأخص فى المجتمعات الريفية يتولد أساساً نتيجة للتنمية الاجتماعية الاقتصادية وما يصاحبها من تحضر ، وتصنيع ، وميكنة . وتشغيل للمرأة وقضاء على الأمية ، وارتفاع فى نسبة التعليم وتحسن فى مستوى المعيشة وفى التغذية يخفض وفيات الأطفال . وعندئذ تتجه هذه المجتمعات اتجاهاً أكثر إلى الإقلال من الإنجاب . أما محاولة إقناع الأسر بالتقليل من عدد أطفالهم بدون أن تتغير ظروف حياتهم فهى محاولة أثرها محدود . إن التنمية والمشكلة السكانية كوجهى العملة الواحدة يؤثر كل منها على الآخر ويتأثر به .

يضاف إلى ذلك أن الاعتماد على الدايات كانت محاولة مقضياً عليها بالإخفاق لأن « الدايات » يعتمدن فى حياتهن على ولادة الأطفال ، ولذلك ليس من السهل الركون إليهن فى الدعوة لتحديد الإنجاب .

لقد أدت أحداث الحرب الباكستانية إلى تفجير كثير من القضايا ومن بينها تنظيم الأسرة ، واحتدم الصراع بين أجيال المسئولين القدامى الذين تحملوا مسئولية المشروع وبين الشبان الذين أدركوا أنه فى هذا المجال قد اتبعت سياسة مضللة ، هدفها صرف الأنظار عن المشاكل الحقيقية والطريقة السليمة لمواجهتها .

باكستان : الأطفال يتعلمون فى الكتّاب القرآن والحساب

وربما كانت مثل هذه التغيرات فى مواجهة المشكلة السكانية هى أحد العوامل الهامة التى نبهت الأذهان فى السنين الأخيرة إلى أن أية محاولة للفصل بين مشكلة الانفجار السكانى وبين قضايا التنمية الاجتماعية الاقتصادية مآلها الإخفاق فى مواجهة هذه المشكلة .

* * *

كانت الساعة قد قاربت السابعة عندما نحت شاباً طويل القامة يجول بعينيه على الجالسين فى النفدق . كنت جالساً بجوار النافذة أتطلع إلى السيارات تمرق عبر الشارع فى سباق هادئ ، وأضواء الليل تتلألأ على واجهة المحلات والمطاعم والفنادق . تقدم نحوى بخطوات مترددة فقمت من جلستى وقلت :

« مساء الخير . أنا الدكتور شريف » .

أضاءت وجهه ابتسامة مرحة وقال :

« هيا بنا السيارة تنتظرنا . أنا الدكتور علاء الدين » .

كنت قد قابلت زوجته الطبيبة فى الصباح فى أثناء زيارتى لمقر الإدارة المسئولة عن تنظيم الأسرة بمقاطعة كراتشى . جلسنا حلقة واسعة من الشباب الباكستانى ، منهم أطباء وإخصائيون اجتماعيون ورجال إعلام . دار الحديث متحفظاً أول الأمر ، منطلقاً حراً بعد أن أحسوا بأننى أتكلم معهم بصراحة ، وزاد حماسهم عندما علموا أننى أكتب فى بعض الأحيان . فى كل مكان تجد أن الكتابة لها جاذبية خاصة للناس ، تفوق جاذبية أية مهنة أخرى . فعندما يسمع الناس أنك تكتب تشرق وجوههم بذلك الخليط من الدهشة والإعجاب الذى يضفى عليها حيوية ويفتحون لك قلوبهم .

المسئول عن الإدارة طبيب شاب تدرك من أول لحظة أنه من أبناء الطبقة الموسرة فى باكستان بل ربما من الفئات الأرستوقراطية . أحسست بارتياح عميق إزاء هذا الشاب . وجهه الأبيض منحوت فى خطوط

حادة واضحة لا تخلو من مسحة جمال أنثوى . كان هادئاً يميل إلى الصمت ويتحدث بحساب كأنه يفكر قبل أن يتكلم . شعره الكثيف يسقط كالجناح الأسود فوق جبهته ؛ وعيناه تلمعان ببريق كالغصوص كلما تحمس لفكرة . شيء ما فيه يوحي بشعلة من الفحم الدفين .

« شبابنا فى أزمة طاحنة . أحس أنه غرر به وأفاق على آماله تنهار مع الهزيمة . لابد أن نعيد بناء بلادنا ، ولكن كيف ؟ هذا هو السؤال » .

قال شاب أسمر كان يجلس على يمينى :

« الرأسمالية طريق مسدود » .

تدخلت سيدة فى مقتبل العمر شعرها تتخلله خيوط من الشيب كالحرير الفضى فى السواد الكثيف وعيناها الواسعتان تشع منهما الطيبة ، وشيء كالحزن الدفين :

« لا تتسرعوا . إن تفكيركم هذا هو الذى يقود الكثيرين إلى اعتبار ما يدور فى الصين حلا لمشاكلنا » .

فى آخر الحجرة كان يجلس رجل انغمس بجسمه الضخم فى المقعد العميق . رأسه يعلو فوق الجميع تغطيه هالة من الشعر الأحمر الملتهب . مال علىّ مرافقى وهمس فى أذنى « إنه شاعر » . كان يجلس صامتاً مغمض العينين كأنه سرح بذهنه بعيداً عن الحديث . فاجأنا صوته العميق يرتفع من جوف الصدر العريض :

« فى المراحل الأولى عندما ساد النقاء الثورى ، والمبادئ الصارمة والإصرار على العدالة ، وعلى التضحية وعلى المساواة كان الإسلام هو الإسلام . وعند ما استشرى بريق المال ، وتفشت الطبقية ، وأقيمت الممالك دخل الإسلام فى عهد الاضمحلال . والإسلام نجح عندما كان حاداً كالسيف . ولكن عند ما بدأ المسلمون يلعبون بالمبادئ ، والحلول الوسطى ، والمساومات ، وسياسة البلاطات أهدرت المساواة فى الإسلام ، المساواة هى من صلب الإسلام . ومن يقل عكس ذلك فهو يفسر الإسلام

على هواه . ونحن نستطيع أن ننظر إلى الصين بدون أن نفقد إيماننا ، إذا أدركنا المعنى الحقيقى للإيمان . إن تزييف الإيمان هو الذى يضعف الدين لأنه عندئذ يدخل فى تناقض مع أحلام الإنسانية فى فرص متساوية وحقوق متساوية لكل البشر . لقد قال الله سبحانه وتعالى :

(ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) ولم يقل طبقات » . . .

ساد الصمت فى الحجرة . تدخل الطبيب الشاب .

« ضيفنا أتى لدراسة تنظيم الأسرة وليس لسماع مناقشاتنا فى السياسة . واليوم سيذهب إلى حيدر أباد . لا بد من الرحيل الآن إذا أراد أن يعود اليوم » .

همست الطبيبة :

« يشرفنا أن تتناول العشاء مع أسرتنا الليلة . سنمر بك فى الفندق الساعة السابعة مساء » .

هكذا وجدت نفسى محمولا فى السيارة عبر شوارع كراتشى . تركت النسيم يعبر النافذة المفتوحة . الأصوات المرحة وأنغام الموسيقى تأتينى مع الريح من مكان بعيد ، يتملكنى شعور المسافر الذى لا يتساءل إلى أين يسير ، وقد استسلم لسعادة اللحظة التى لا تعاش إلا مرة واحدة .

نزلنا من السيارة قرب الميناء . سرنا مسافة قصيرة بجوار جدار عال ثم دخلنا من باب ضيق . لمحت أشرعة بيضاء تشق الظلام فى صفوف تبدو كالرماح الطويلة . الأمواج الصغيرة تصدم الرصيف بصوت رتيب يهدهد الأعصاب وأضواء قليلة متفرقة ترقص فوق مساحات الظلام .

سار بنا المركب فوق سطح المياه ، كأننا نتزلق على الفراغ . أخذت عيناى تميز الأجسام والوجوه . كانوا أربعة : هم الزوج والزوجة وولداهما شاب وفتاة . الأجسام فارعة الطول فيها ليونة الحيزران والوجوه سمراء تومض ببياض الأسنان فى الظلام ، وتشع فى هدوء الواثق من نفسه .

كانوا يتحركون كأنهم جزء من الطبيعة . المركب يشق طريقه كالسكين وفى السماء تتلألأ نجمة وحيدة .

جلس الطبيب إلى جوارى :

« الليلة نحتفل بعيد زواجنا العشرين » تطلع إلى زوجته ثم صمت .

ضغط الشاب على مفتاح جهاز تسجيل كان يحمله معه .

قال الطبيب :

« أغنية من البنجاب » .

صوت امرأة يرتفع فى السكون ، طويلا ممتداً كأنها تغنى للزمن .

* * *

« فى السماء ومض ضوء أحمر ، طائرة تدور فوق المدينة استعداداً للهبوط .

أدركت فجأة أن الرحلة انتهت .

الرحلة انتهت . ولكن الحياة تسير :

ترى . . . إلى أين ؟ ! »